الفصل الثانى

المظاهر الحضارية

- ظواهر التمدين وحقيقته .
- الخلق عنصر حضارى .
- أثر الحضارة الإسلامية حتى اليوم .
- الزراعة ..
- مزارع تجارب النبات .
- الصناعة .
- فى الفن والتاريخ ..
- الموسيقى والغناء فى الأندلس .
- تخطيط المدن الإسلامية .
- الأعياد فى القرن الرابع الهجرى .
- الألقاب والتكلف فى المكاتبات .

obeikandl.com

obeikandl.com

المظاهر الحضارية

● ظواهر التمدين وحقيقته :

قال جورجى زيدان [١] : « ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين ، وحقيقة تتجلى منه للباحثين .

أما الظواهر فهى ما نراه من ثمار وذلك التمدن ، كالتربية والعلم والأدب ، والثروة والصناعة والتجارة ، ونظام الهيئة الاجتماعية وآدابها .

وأما حقيقة التمدن فهى ما ينتج عن التمدن من الخير أو الشر ، من السعادة أو الشقاء للمستظلين بظله من المسلمين وسواهم من بنى الإنسان .

قال « فاسيلى ڤلاديمير ويج بارتولد » فى كتابه « تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع » [٢] : « أبعد الرومان من بحر الخزر نهائياً ، وكانوا قد استولوا عليه فى زمن پومپى (Pompai) وصارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية فى زمن الساسانيين كذلك ، واستولت على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر ، وبهذا الحادث يبتدىء انتقال التفوق فى الحضارة من أوروبا إلى الشرق الأدنى .

ويتجلى هذا كاملاً فى عهد المسلمين ، إذ أن تلاقى المسيحية والإسلام ، وبروز مذهب التجديد الأدبى غيّرا آراء الأوروبيين فى الشرق ، فصارت معرفة لغة من اللغات الشرقية أمراً محتماً على كل أوروبى مثقف .

*

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ١١/٢

(٢) ترجمة حمزة طاهر ص ٧ ، الطبعة الثانية - دار المعارف .

● تفوق الحضارة الإسلامية :

ثم قال « بارنولد » : ومهما كانت مزايا النصرانية بالقياس إلى الإسلام فإن حضارة العالَم الإسلامى ما فتئت متفوقة على الحضارة المسيحية ، حينما كانت تجارة العالَم بأيدى المسلمين ، ومهما بلغت مزايا أوروبا فى أقاليمها وطبيعتها وموقعها الجغرافى بالقياس إلى القارات الأخرى ، فإن هذه المزايا ما ظهرت إلا بعد أن أخذت أوروبا تشغل الدرجة الأولى فى العلاقات المدنية [١] .

وكان أكثر المبشرين من النصارى يكرهون العلوم والفنون المتصلة بالعقيدة الوثنية (لعل ذلك لتأثرهم بالثقافة الإسلامية) ولم يكن عند نصارى القرن العاشر ما يدعو إلى الاهتمام بشئون الدولة وتقدم الحضارة مادياً وأدبياً ، وكانت الكنيسة سبباً لسقوط العلم والفن [٢] .

* * *

(١) بارنولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧ - ٨

(٢) المرجع السابق ص ١٣

obeikandl.com

الخُلُق عنصر حضارى

بيَّن الرسول محمد ﷺ هذه الحقيقة عندما جعلها الطابع الحضارى للمسلم والإسلام وقال : « إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق » ، وقال له ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وفى الآثار : « لكل دين خُلُق وخُلُق هذا الدين الحياء » . وكان الرسول ﷺ يُعلِّم أصحابه إذا نظروا فى المرآة أن يقول أحدهم : « اللّهم أنت حسَّنت خَلْقى فحسِّن خُلُقى » ، وقد تنبه مؤرخو الحضارة لهذه الظاهرة فى الإسلام فقال « لوبون » : لقد غيَّر عرب أسبانيا شكل الأندلس فى بضعة قرون . ليس فى الماديات والعقليات فحسب ، بل تعدوها إلى الأخلاقيات ، فقد تعلَّموا وحاولوا أن يُعلِّموا الشعوب النصرانية أثمن الصفات الإنسانية وأعنى بها « التسامح » ، ولقد كان من لطفهم مع الشعب الذى افتتحوا أرضه أن يعقد اساقفتهم مجامعهم الدينية فى إشبيلية سنة ٧٨٢م ، وفى قرطبة سنة ٨٥٢ م ، وهذا من الأمثلة على غاية تسامحهم وعلى حسن معالجة الأمور .

ومن هذا القبيل هذه الكنائس والبِيَع الكثيرة التى شادها نصارى الأسبان فى العهد العربى فى أسبانيا . وكل ذلك دليل على الأخلاق السمحة التى كان العرب يعاملون بها ذوى المعتقدات المخالفة التى تحت سلطانهم .

وقد انتحل الإسلام كثير من النصارى على حين لم يكن لهم فى ذلك كبير مصلحة ، لأن النصارى الذين كانوا فى مظلة الحكم العربى ، ويُطلق عليهم وصف « المستعربين » ، كانوا يُعامَلون هم واليهود على حدٍّ المساواة مع المسلمين فى القانون والتعامل الاجتماعى ، فيمكنهم أن يتولوا جميع وظائف الدولة ، وكانت أسبانيا العربية البلد الوحيد فى أوروبا الذى كانت فيه حقوق

---

(١) القلم : ٤

اليهود مصونة ، حتى كثر فيها سوادهم ، وفى الوقت الذى كان يطلق فيه وصف « المستعربين » على أبناء النصرانية الخاضعين لأحكام المسلمين فى الأندلس ، كان يطلق كلمة « المدجّنين » على المسلمين الخاضعين لحكومة أسبانيا .

وقال « سوريليو » و« لبون » وغيرهما : كان العرب فى أسبانيا من حيث الأخلاق والعلم والصناعة أزكى من النصارى ، وكان فى أخلاقهم وصفاتهم شىء من الكرم والإحسان ، مما لم يكن له أثر عند غيرهم ، وفيهم الشمم الذى امتازوا به ، وكان الإفراط فى حبه مولداً لجنون البراز المشئوم [1]

وكتب « ريكو » لدوس حوالى سنة ١٢٩٤ م يصف المسلمين قائلاً فى صيغة تعجب : « ومَن لا يعجب بحماستهم وبخشوعهم فى صلاتهم ، وبرحمتهم الفقير ، وبتقديسهم اسم اللّه والأنبياء والأماكن المقدسة ، وبحسن عشرتهم ولطفهم مع الغريب ، وبانفاقهم وتحابهم » .

* * *

● أثر الحضارة الإسلامية حتى اليوم :

فى مارس ١٩٢٨ جاء إلى القاهرة الأستاذ « يهودا » من جامعة مجريط وألقى محاضرة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة قال فيها :

« أخذ الناس يدركون الآن : أن أوروبا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون واليهود والنصارى على السواء ، وأدركوا أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة والرياضيات وعلوم العمران كانت تستمد روحها فى زمن النهضة والإصلاح من ذلك المنهل العذب ، ألا وهو الحضارة الإسلامية ، وصار علماء العصر كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوروبية من أيام تلك الحضارة .

---

(١) عن الإسلام والحضارة العربية : ٢٥٨/١ ، ٢٥٩

وبالرغم من تحامل دوزى (Dozy) على المسلمين فإنه يقول فى كتابه « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » : « إن العرب لم يحكموا بتعاليم فلسفية فقط ، بل بالفطرة والغريزة [1] .. حتى حققوا بادىء بدء مقالة الثورة الفرنسية وهى : « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » . ولقد كان البدوى يستمتع بحرية ليس أوسع منها على الأرض . ويقول : لا أعرف مولى غير مولى العالم ، وبلغ الحد الأعظم من الحرية ، بحيث لو قرنت معها أصولنا فى الحرية الراقية إلى أبعد الغايات لكانت تسجل أنها تشبه قواعد الاستبداد .

وإذا منحت إحدى القبائل لقب أمير لأحد أفرادها ، فلا يكون ذلك على الأغلب إلا من قبل الحرمة . لا يعود عليه بشىء ، بل هو بمثابة شهادة عامة تمنحه إياها ، دليل إجلالها له ، واعترافاً بإخلاصه فى قضاء شئون قبيلته .

قال أحد الأحرار الأقدمين : إننا لا نعطى هذه المرتبة لأحد ما لم يهبنا كل ما يملكه . ويسمح لنا أن نطأ بأرجلنا كل عزيز لديه ، وينزل عن كل ما يحب أن يراه مبجلاً شريفاً ، ويخدمنا خدمة الموالى والعبيد .

ثم قال : « وهذا الفهم العربى للحرية والإمارة خير من مفهومها الديمقراطى الغربى ، لأنه أدعى إلى نجاة الأفراد الأمراء من الأطماع التى لا حدَّ لها .. مما يهدم أركان المجتمع كما هو مشاهَد فى أوروبا » .

ثم قال : « إن العرب لما نزلوا فى الولايات الجسيمة التى افتتحوها بحد السيف اشتغلوا مع هذا بالعلوم ، إلا أنهم لم يظهروا فى غير مظهرهم الأول فى عدم الخنوع لحكم الخلائق ، وترجموا كثيراً من كتب الأقدمين ، وعلقوا عليها شروحاً ، فاغتنت بأعمالهم بعض فروعها . واتسع نطاقها بملاحظاتهم الدائمة

---

(١) يتجاهل أن الإسلام نفسه دين الفطرة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .
(الروم : ٣٠) .

البالغة غاية الدقة والوضوح ، لقد كانت أوروبا تحت سلطة الباباوات ، يتصرفون فيها على هواهم ، ويتحكمون فى الأرواح والأشباح ، والناس تائهون فى ظلام الجهالة ، لا يرون النور إلا من سمِّ الخياط . والنور لا يسطع إلا من جانب الأمة الإسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وغير ذلك .

وكانت بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وفارس وغرناطة وقرطبة هى المراكز العظيمة للعلم ، بينما عواصم أوروبا التى ندهش بها اليوم كانت أشبه بقرى ، لا علم فيها ولا عمران ، وهى متأخرة فى شئونها المادية والأدبية كافة .

وما كانت فى دار الإسلام مدرسة ولا جامع ولا بلد ولا دار كبرى تخلو من خزائن كتب مسبَّلة على المطالعين . هذا مع ندرة المخطوطات فى ذلك العهد وغلائها ، يجتمع العلماء فى تلك الدور يقرأون ويتباحثون ويتدارسون ، تساوى فى ذلك الرجال والنساء .

وكانت المعارف فى المدن والقرى - وفى الأندلس خاصة - مبذولة لكل طالب ، حتى قال أحد مؤرخى الإفرنج : إن معظم سكان أسبانيا الإسلامية كانوا يقرأون ويكتبون فى زمن كان أهل الطبقة العليا فى أوروبا النصرانية أميين لا يقرأون ، عدا أفراداً قلائل من الشمامسة ، جعلوا الكتابة صناعة لهم .

وقال « روبرتسون » : كان فى أسبانيا فى ابتداء القرن الخامس عشر مدن كثيرة أعمر من باقى مدن أوروبا حاشا مملكتى إيطاليا وبلاد القاع . وكان العرب أنشأوا فى مدنهم معامل ومصانع إبَّان كانوا يحكمونها .

وقد غصَّت ديار المسلمين بالمجامع العلمية ، مؤلَّفة من علماء لا يُنظر فى اختيارهم إلى الدين الذى يدينون به ، بل يراعى فيه علمهم واختصاصهم ، وما كان مجلس لخليفة أو عظيم يخلو من عالم ينصت الحضور له . ومِنَ الملوك مَنْ كان

يستصحب العلماء فى غزواته [١] ، ومنهم مَن يستصحب أحمالاً من الكتب فى غزواته .

وقال أحد علماء الإنجليز فى مطالع هذا القرن : « لم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامى فى صميم حياتهم ، حتى إن ممالك أسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون .. واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأرجون جماً غفيراً من علماء المسلمين واليهود ، وقدَّموهم فى مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم ، كما استخدم كثير من ملوكهم مهندسين وبنَّائين من أهل الإسلام .

هكذا كانت روح التسامح الإسلامى التى ماتت فى أسبانيا وقضى عليها بالقضاء على الإسلام ، وحل محلها روح خبيثة ملؤها التعصب الأعمى الذى أشعل ناره القساوسة الكاثوليك ، لتصبح أسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم » [٢] .

وقال « چوتيه » : للعرب فى باب الاختراعات شىء لا بأس به بالنسبة لعصورهم ، وقد وُجِد فى كتاب عربى قديم لم يُنقل إلى اللغات الأوروبيه أن العرب عرفوا طريقة عمل الجليد الصناعى ، بينما لم تعرف أوروبا سر هذه الصناعة إلا فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، وأدخلوا على أوروبا الورق المعمول من القطن ، والورق الرخيص الثمن فقد كان الناس يكتبون على البردى وهو غالى الثمن جداً ... وقال : إن العرب علَّمونا صنع الكتاب ، وعمل البارود ، وإبرة السفينة ، فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا لو لم يكن من ورائها هذه المخلفات التى وصلتنا من المدنية العربية » [٣] .

* * *

(١) شأن الإسكندر الأكبر ثم الحملة الفرنسية لنابليون على مصر .

(٢) الإسلام والحضارة العربية : ٢١٩/١ (٣) المرجع السابق : ٢٢٥/١ - ٢٢٦

الزراعة

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة ، إلا كان ذلك فى ميزانه يوم القيامة » (حديث شريف) .

قال « رامبو » [1] : لم يكن فى عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة . فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفُرس . وأزهار إقليم مازندران ، وقد أغنوا العلم - ولا سيما علم النبات - بمسائل جديدة كثيرة .

ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والغَوْل (الكحول) واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر وجوز القىء ، هم الذين كشفوها .

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب الأمة العربية أول العارفين بالزراعة ، وأحسن العمال ، وأصبحت الزراعة التى أخذوها من أساليب بابل والشام ومصر علماً حقيقياً للعرب ، أخذوا نظرياتها من الكتب ثم وسَّعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ، ولا يستنكف أعلى الطبقات عن العمل بأيديهم فى زراعة الأرض ، بينما كان غيرهم يحتقرها ويعدها عملاً مهيناً . وقد روى « دوزى » أن ابن الخطيب لم يكتسب من غير التجارة والفلاحة مالاً . وقد أقام من أعمال العمران ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان .

● تعقيب : كيف لا . والعمل بالزراعة عبادة إلى جانب أنها كسب شريف ، ففى الحديث : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان ذلك فى ميزانه يوم القيامة » .

* *

(١) الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٦/١ ، ٢٢٧ عن التاريخ العام للافيس ورامبو .

وقال « سنيوبوس » فى « تاريخ الحضارة » : جرى أمراء العرب على أصول إسقاء الأرضين بفتح الترع ، فحفروا الآبار ، وجازوا بالمال الكثير مَن عثروا على ينابيع جديدة . ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ، ونقلوا إلى أسبانيا أسلوب النواعير لتمنح المياه ، والسواقى التى توزعها . وإن أسهل « بلنسية » الذى جاء كأنه حديقة واحدة ، هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا .

*

● هندسة الرى :

ثم قال « سنيوبوس » : لقد نظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع إليه فى شئون الرى .

وذكر « ويليام ويلكوكس » من أعاظم مهندسى الرى فى أوائل الثلاثينيات : أن عمل الخلفاء فى رى العراق فى الأيام الماضية ، يشبه أعمال الرى فى مصر والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا فى هذا العصر (لعله يعنى رى الحياص فى بعض المناطق ، وبالآلات فى البعض الآخر ، وبالأمطار فى مناطق أخرى) .

*

● مزارع تجارب النبات :

وذكر « سنيوبوس » : أن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة التى وجدوها فى مملكتهم ، وحملوا كثيراً من النباتات إلى صقلية وأسبانيا ، وربوها فى أوروبا فأحسنوا تربيتها ، حتى لتظنها متوطنة ، وذلك مثل الأرز ، والزعفران والقُنّب ، والمشمش ، والبرتقال ، والكبار ، والنخل ، والهليون ، والبطيخ الأصفر ، والعنب ، والعطر ، والورد الأزرق والأصفر ، والياسمين ، بل والقطن والقصب .

وقال « ريسون » : إن استبحارعمران العرب مع سرعة انتشار سلطتهم فى

المعمور يدل على مكانتهم فى التقدم ، فكانت هذه الحضارة مزيجاً للحضارات ، وتم هذا المزيج المدنى بأمرين ، عشق التجارة ، والغرام بالتعمير . وأصبحوا لذكائهم الوقاد ، ولما غرس فيهم من حب الاطلاع على كل شىء ، يخوضون غمار العلوم الطبعية والرياضية ، فابدعوا الكيمياء وبرعوا فيها ، وطبقوا تلك العلوم على الزراعة والصناعة .

ويقول المستشرق « لويس » البرتغالى : إن تاريخ العرب حافل بذكائهم وتقدمهم وسيادتهم فى كل العلوم والفنون حتى فى الزراعة ، فقد كانوا بعد غزوهم إحدى المقاطعات حين يجدونها خربة يحيلونها بعد سنين إلى جنات حقيقية ، بفضل مساعيهم وتفوقهم وتدابيرهم العجيبة .

ويؤكد « بالستر » المؤرخ الأسبانى هذا قائلاً : امتاز العرب بسرعتهم الغريبة فى تلقف علوم العالم القديم ، من فلسفة وتاريخ وحساب وهندسة وفلك وعلوم طبعية ، وتفردُوا خاصة بعلم النبات ، نشروه فى مدارسهم الكثيرة . ومن أعمرها مدارس قرطبة وطليطلة وأشبيلية .

● **تعقيب** : من خطأ الكاتب قوله : « تفردوا بعلم النبات » ، والواقع أنهم تفردوا بكثير من العلوم ابتدعوها كعلم الجبر الذى ابتكروه .

وقال بعض الباحثين : لما استولى العرب على ناربون ، وبروفسيا ، وغيرهما : عمروها فأحسنوا عمارتها ، وكان « شانجة » - أمير ليون - يستشير بنفسه أطباءهم ، وعمن تعلموا فى مدارس قرطبة لفزاربل ، ولابيه دى كلونى . وأخذت فرنسا من العرب أساليبهم فى الزراعة ، وحفر الترع والخلجان ونظام الرى . وبلُدوا فى الأندلس النباتات والأشجار التى لم تكن تعرفها . فانتقلت إلى أوروبا ، وأتونا بصناعة السجاد وإنشاء السفن [1] .

* * *

(١) محمد كردعلى : الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٤/١

الصناعة

« خير الكسب كسب الصانع إذا نصح »

(حديث شريف)

قال « سيديليو » : إن بعض الفرنجة زعموا أن العرب لم يعملوا فى تقدم الصناعات شيئاً ، مع أنهم برعوا فى جميع الفنون الصناعية ، واشتهروا عند الأمم بأنهم دباغون ، سباكون ، جلاءون للأسلحة : نساجون أصناف الثياب ، ماهرون فى أشغال المنقاش والمقراض ، ويؤيد علوّ كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة ، ودروعهم الخفيفة الصلبة ، وبُسطهم ذات الوبر ، ومنسوجاتهم من الصوف والحرير والكتان ، وما كشمير هذه الأيام إلا نموذجات دالة على تلك الصناعة .

ويقول « رينو » : إن العرب لما أغاروا من الأندلس على جنوبى فرنسا وافتتحوا بقيادة السمح الخولانى وعنبسة الكلبى ، والحر الثقفى مدائن أربونة ، وقرقشونة ، وأفنيون ، وليون ، كانوا مجهزين بأسلحة لم يكن للإفرنج مثلها .

وقال « لوبون » : لا يرى الباحث فى مختلف مصنوعات العرب أية صلة ظاهرة بمصنوعات أية أمة أخرى . فالإبداع فى مصنوعات العرب تام واضح . ولم يسبقهم أمة فى قوة هذا الإبداع الفنى .

ويقول « نيكلسون » : « .. وما المكتشفات اليوم ، لتُحسب شيئاً مذكوراً ، إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلاً وضاءً فى القرون الوسطى المظلمة ، ولا سيما فى أوروبا .

وقال « رفول » فى تاريخ الجيش الفرنسى » : اقتبس الغربيون من العرب - فى الحروب الصليبية - أصول نسف حصون المدن كما أخذوا من العرب طريقة استعمال النار اليونانية (أى الصواريخ) وقد استخدمها صلاح الدين فى حصار عكا سنة ١١٩٠ م .

وكانت دمشق فى الذروة العليا من حيث صناعتها ، يصنع فيها دروع تقى وقع السهام ، وهى أطول حجماً مما كان يصنع من طرازها فى أوروبا ، وكانت دمشق فى الذروة العليا من حيث صناعة الخوذ ، ذات الحافات الكاملة والسيوف الجميلة المحلاة والمصنوعة من الفولاذ . دع ما كان يُصدَّر من تلك المدينة من الثياب الرقيقة الطريفة التى شاع استعمالها فى الغرب لدن عودة الصليبيين من الشرق .

وقال « سنيوبوس » : « ويتعذر الحكم فى تحديد الطرق التى دخل منها إلى أوروبا اختراع من اختراعات الشرق ، وفيما إذا كان انتهى إلينا من طريق الصليبيين فى فلسطين ، أو من طريق التجار الإيطاليين أو جاءنا من عرب صقلية أو من المغاربة فى أسبانيا . بَيْد أن الحساب يمكن تقديره بما نحن مدينون به للعرب ، وإن كان هذا الحساب مما يطول شرحه ، فقد أتتنا من العرب :

أولاً : الحنطة والهليون والقنب والكتان والتوت والزعفران والأرز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر .

ثانياً : معظم صناعاتنا فى التزين كالثياب الدمشقية القطنية والسختيان وثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصلى ، والشفوف والحبر والمخمل والورق والسكر وعمل الحلويات والمشروبات .

ثالثاً : مبادىء كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والأرقام العربية التى اقتبسها العرب من الهنود فسهل بها الحساب مهما كان صعباً ، ولقد جمعت العرب وقرَّبت جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها إلينا ودخل كثير من الألفاظ فى لغتنا ، وهى شاهدة بما نقلناه عنهم .

وبواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى كان بربرياً فى غمار المدنية ، فإذا كان لأفكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم فإن جماع الاختراعات التى تجعل الحياة سهلة لطيفة ، قد جاءتنا من العرب ، وأخذ الأوروبيون من العرب صنع الجوخ فى جملة ما أخذوا من الصنائع .

وكان أهل بيزا الإيطاليون ينزلون مدينة بجاية فى الجزائر ، فتعلموا منها صنع الشمع ، ومنها نقلوه إلى ديارهم وإلى أوروبا .

وذكر « ريسون » أن العرب أحرزوا فضل السبق - دون غيرهم - فى مضمار التجارة ، ورقوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين الملاحة ، واقتبسوا من الصينيين استعمال إبرة السفينة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر ضبطاً جيداً ، وشرحوا الكفالة وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج (الكمبيالات) المألوفة ، وردود التمسك (البروتستو) ، وبعثوا الحركة فى مصارف الغرب الحديثة .

وكنت تراهم - حيث ينزلون - يمهدون السبل ، ويعمرون المرافىء والفرض ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل ، وكانت المدن الإسلامية أوساطاً تجارية كبرى [1] .

* * *

(١) العرب والتجارة لريسون ، مجلة المقتبس - م ٧.

فى الفن والتاريخ

جاء فى كتاب الفن والتاريخ لمؤلفه « لركيه » :

إن العرب ورثوا فيما ورثوا عن الأمم التى دخلت فى حوزتهم الفنون والصناعات ، وأخذوا يحذقونها ويبرعون فيها فى مدارس « المورثين » . إذ لم يكن فى استطاعتهم أن يرتجلوا فناً كما ارتجلوا لهم ملكاً . ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناءون والحفارون ، والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا فى شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم ، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدُّوه إلى التفنن والإبداع ، فنقَّحوا وصححوا ، وحذفوا وأضافوا ، ثم اخترعوا وابتكروا ، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربى ، وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، حرصاً على شخصيتهم أن تفنى ، فأصبح الروح العربى بارزاً واضحاً يندمج فيه غيره ، ولا يندمج فى شيء . ولهذا أوجدت العرب لها فناً يوافق ذوقها ويسير مع طبعها { ودينها } وسرعان ما انتشر فى أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء .

قالوا : وقد خضعت الفنون الإسلامية لنواميس الطبيعة الإقليمية فاصطبغت فى كل قطر بصبغته الخاصة ، وكانت فى عامة أحوالها - من أندلسى ومغربى وصقلى ومصرى وشامى وعراقى وفارسى وهندى ومغولى - إسلامية أصيلة كريمة نبيلة ، تنطق بما للإسلام من إباء ونجدة وشهامة ونخوة ...

* *

• الموسيقى والغناء فى الأندلس :

يقول « جورج سرطون » [1] : لقد كان العرب فى عامة أدوارهم مولعين بالموسيقى منذ ذهبت عنهم وحشة البداوة ، وقد أعظم الخلفاء والأمراء والقضاة والعلماء والفلاسفة والأدباء قدرها فى التهذيب . حتى تخوَّف بعض علماء الدين

---

(١) الإسلام والحضارة العربية : ١/ ٢٥ - ٢٥٢

منها وأخذوا يفكرون : هل الموسيقى جائزة شرعاً ؟ وما هو القدر الذى يباح منها ؟ وهناك تآليف كثيرة تعنى بالبحث فى العلاقة بين الموسيقى وحُسن الأخلاق وسلامة الدين [١] ، وقد ألمَّ الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » بهذا الموضوع ، وألَّف كبارٌ مسلمون { من رجال الفلسفة والطبيعة } فى فن الموسيقى فأبدعوا ، وبدأت الموسيقى العربية تسرى إلى الحجاز . نقلها إليه جماعة الموالى عن الفُرس والروم [٢] . وكانت الجارية تتعلم صنوفاً من الآداب اللازمة لإجادة العبارة وتطريبها بما يناسب المعنى . كالنحو والبلاغة والعروض ، وما يحتاجه التطرف فى القول وكسب الجمهور ذى المستوى الرفيع كالطب والتشريح واللعب بالرماح والسيوف حتى بلغ ثمن الجارية أحياناً ثلاثة آلاف دينار ، واشترى أحد الخلفاء جارية بمائة ألف .

وكانت مجالس الغناء فى بيوت الأمراء من أصحاب الستائر شهيرة وكثيرة ، سموا « أصحاب الستائر » لأنهم كانوا يضربون ستارة تحول بين القينات وبين المستمعين من الرجال وندماء الأمير .

ولا يزال إلى اليوم غناء الأسبان ورقصهم كغناء العرب ورقصهم ، وكذا فى البرتغال ومهاجرهم فى أمريكا الجنوبية ولا سيما أهل الأرجنتين والبرازيل .. وعن العرب والأسبان أخذ الفرنجة .

● ملاحظة : هذا مظهر حضارى واكب التفسخ الدينى .. فهو اللهو الذى إن جاز - كملح الطعام قليلاً - فكثيره قاتل للشعوب .

* *

● معرض السلطان سليمان القانونى :

طاف المعرض فى الثمانينات كبريات المدن الأمريكية . والسلطان سليمان هو السلطان العاشر من سلاطين العثمانيين .

يقول « بلند الحيدرى » : ويعتبر الفن الإسلامى من بين الفنون القديمة أكثرها

---

(١) للأخت زينب عوض الله بحث جيد عن « الغناء واللهو فى الإسلام » .

(٢) وهذا يشعر أنه فن دخيل على الإسلام .

تميزاً بشخصيته الشاملة التى بقيت محتفظة بوحدتها رغم تسطّحه على مساحة من الأرض تمتد من مشرقها إلى مغربها ، ورغم عبوره - لفترات تحولية مهمة خلال ما نيف على ثلاثة عشر قرناً ، ورعم تكيفه لألوان شتّى من التواريخ السياسية فى العالَم الإسلامى والتى نشأ ملتصقاً بها التصاقاً حميماً .

والناقد الفرنسى « جورج مارسيه » فى كتابه « الفن الإسلامى » يرى أن هذا الالتصاق ميزة مهمة من مميزاته ، فلئن كان ظهور الفنون الأخرى مستقلاً عن هذه الظروف التاريخية فإن الفن الإسلامى بقى مرتبطاً بها باستمرار .

وإذا كان الفن الإسلامى قد تأثر بما وصل إليه من فنون البلدان المجاورة ، حيث إن الإسلام يتنافى مع الجمود ، فإنَّ أيّاً من تلك الفنون لم يسلم من تحريف الفنان المسلم الذى أعطاه بذلك سمته الخاصة به وبمعتقداته ، وجرَّدها من كل ما تنطوى عليه من رموز وإشارات لتستحيل إلى فن زخرفي تجريدى بعيد عن كل رمز تاريخى أو أسطورى .

وفى كثير من الزخارف التى تعود بنا إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين قد نلمس أسلوب الفنانين القبط فى استخدام التباين ما بين الظل والضوء ، ولكننا نلمس - فى الوقت ذاته - أثر المسلمين فى تطوير هذا الأسلوب برفعهم من شدة الخاصية المنبثقة عن التناسق الزخرفى ما بين الأرضية الغائرة والخطوط المتقاطعة والمتكررة على سطحها مما أكسبها الطابع الإسلامى .

ومثل ذلك ما قد نقع عليه فى استخدام الفنان المسلم لأسلوب التوريق الساسانى القائم على إندماج المراوح التخيلية بانتظام وتماثل ما بين المراوح الكاملة وأنصاف المراوح ، إلا أنه استطاع أن يخرج بهذا الأسلوب إلى أشكال جديدة من النمط التى يصعب أن ننسبها إلى غير قدرتها الذاتية فى التحوير والتغيير بحيث يصبح عامل التأثر عاملاً ثانوياً وغير واضح ، وهو ما يشير إليه « جورج مارسيه » بقوله : لقد أعطاها وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على أصولها .

وهذا ما أكده البروفسور « م . س . ديماند » فى كتابه « الفنون الإسلامية » إلى أن الفن الإسلامى عندما اقتبس الأشكال المجنحة عن الفن الساسانى فى

الزخرفة الإسلامية أحدث تحويراً فى أشكال الأجنحة أو الأشكال المجنحة الساسانية حتى فقدت طابعها فى معظم الأحيان وأصبحت عنصراً زخرفياً بحتاً .

ويذهب العالم الأثرى « هرز فيليد » إلى القول بأن : ثمة ثلاثة أساليب كانت تشكل مسارب إلى الفن الإسلامى فى العصر العباسى ، منها ما يمت بصلة إلى تقاليد الفن الهيلنستى ، أما الأسلوب الثانى فيتمثل فى استخدام المربعات والمعينات والأشكال الكوكبية والتى تقوم على صيغ نباتية أو حيوانية توضح العلاقة ما بين الأجزاء ، وحيث تتصل ورقة الكرمة المصحوبة بعنقود هرمى بساق مرنة تنحدر ملتفّة على بعضها .

وكان للخط العربى دور مهم فى تطوير الفن الزخرفى ، وبخاصة وأنه تعبير عن حكم جليلة أو آية كريمة أو أحاديث تضيف إلى الجمال الزخرفى روعة الدلالة الأدبية .. وكذلك كل فن جمالى يكون فى مستوى عظمته بمستوى دلالاته .

* *

● فى المساجد :

ولا تزال المساجد تحمل روعة الفن الإسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها ، قديماً وحديثاً ، حتى فى البلاد الفقيرة النامية ، فى الهند وباكستان والقاهرة والأندلس كالحمراء ومساجد قرطبة وغرناطة وإشبيلية .

وفى العصر الحديث (١٩٨٩) مسجد الحسن الثانى ، وهو تحفة معمارية إسلامية حضارية ، شُيِّد فى الدار البيضاء على مساحة إجمالية تبلغ (٧٠٠ر١٥٣) متر مربع ، ومئذنته تقام جنوبى المسجد على قاعدة مساحتها ٦٢٥ متراً مربعاً ، وترتفع فى الأفق ١٧٥ متراً . وتشتمل على سلم ومصعد ، وفى أعلاها أشعة ليزر التى يمكن مشاهدتها على بعد ٣٥ كم ، ويستوعب فى داخله من المصلين (٢٠٠ ألف مصلٍّ) ، ومع الصحن الخارجى يستوعب (١٠٠ر٠٠٠ مصل) ، وقبالته مكتبة إسلامية وكُتّاب لتحفيظ القرآن [١] .

* * *

(١) الأهرام : ١٩٨٩/٣/٧

صورة لتخطيط المدن الإسلامية

قال جورجى زيدان فى « تاريخ التمدن الإسلامى » [1] :

« نريد بالمدن الإسلامية ما بناه المسلمون من المدن لأنفسهم ، وهى غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفُرس .

والمدن الإسلامية عديدة فى العراق والشام ومصر وإفريقيا والأندلس وغيرها . ومنها ما لم يزل عامراً إلى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ، ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط بمصر ، والزهراء بالأندلس .

كان المسلمون فى صدر الإسلام عرباً أهل خيام وماشية وخيل ، يكرهون الإقامة داخل الأسوار وينفرون من الانحصار فى المدن ، فلما تأيّد الإسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار فى العراق والشام ومصر ، كانوا فى بادىء الرأى إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فإذا فتحوا بلداً أقاموا فى ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم ، وجعلوا هذا الموضع معسكراً لهم .

وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين فى الأمصار ألا يقيموا فى مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه ، حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص فى الفسطاط . وسعد بن أبى وقاص فى الكوفة والبصرة ، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبِّرون عنها بالرباط أو المعسكر . فإذا طال بهم المقام اختطوا الأسواق ، وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم فى صدر الإسلام ، فبنوا البصرة ، والكوفة ، والفسطاط ، على هذه الصورة .

---

(١) الجزء الثانى ص ١٧٥

فلما ضخم مُلْك العرب وتعددت دول المسلمين ، صاروا يختطون المدن ، تثبيتاً لفتوحاتهم كما فعل عقبة بن نافع عندما اختط القبروان فى إفريقيا (تونس الحالية) تثبيتاً للفتح الإسلامى لهذه الناحية ، أو تحصناً بهم من أعدائهم - كما فعل المنصور باختطاطه بغداد ، فإنه بناها حصناً له ، وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة .

* *

● الاستجمام :

وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزه بها والابتعاد عن الغوغاء مثل سامراء ، والمتوكلية ، والزهراء ، وغيرها .

● تعقيب : (الكاتب خانه التعبير هنا . وليس له دليل على إرادة الابتعاد عن الغوغاء) وإليك نماذج لتخطيط هذه الأمصار :

● تصميم البناء :

يقول « لويس » [١] : إن المنورين من البرتغال اليوم يقدِّرون الأمة العربية المجيدة حق قدرها ، ويدرسون ما أبقته آثارها الخالدة ، ولا سيما هندستها فى المبانى التى أصبحت خاصة بها ، تفتخر بها الشعوب المتمدنة لعهدنا ، وتعجب منها .

البصرة

قال « جورجى زيدان » : « مصَّرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة .. على الضفة الغربية للفرات وبنوها أولاً بالقصب ، ثم خافوا الحريق فبنوها باللَّبِن بإذن عمر . وجعلوا المدينة خِططاً بحسب القبائل . لكل قبيلة خِطة ، وجعلوا عرض

(١) من علماء المشرقيات فى البرتغال - انظر : الإسلام والحضارة العربية : ٢٦٣/١

شارعها الأعظم ستين ذراعاً وهو مرْيدها ، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً ، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع ، ووسط كل خِطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم وقبور موتاهم ، وتلاصقوا بالمنازل .

ونظراً لموقعها التجارى { كانت فرضة للعراق ووسطاً بين الشام وفارس } أسرع إليها العمران واتخذتها الحكومة مقراً لإمارة العراق فى أيام بنى أمية ، فعمرت البصرة حتى بلغت مساحتها فى إمارة خالد بن عبد اللّه القسْرى فرسخين فى فرسخين ، أى ٣٦ ميلاً مربعاً فى أرض منبسطة لا جبال فيها ، وذلك أوسع من مدينة القاهرة (٣. ١٩) [١]

وتجاراتها تمتد شرقاً إلى الهند والصين ، وغرباً إلى أقصى بلاد المغرب ، وجنوباً إلى الحبشة ، وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية حتى ضرب المثل فى ذلك فقالوا : « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وخوزى ، ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الأقصى (فى الغرب) فلا بدٌ من أن يرى بها بصرياً أو خوزياً (من أهل خوزستان) أو حيرياً (من أهل الحيرة) وشأنهم فى ذلك شأن السوريين اليوم ، أو هو دأبهم من عهد الڤينيقيين [٢] .

وقال أيضاً : « وتكاثرت الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين إليها للاتجار أو الإقامة ، فابتنوا فيها القصور والحدائق ، وأنشئوا الميادين والبرك » .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ١٧٦/٢ . ١٧٧ ، وانظر : كتاب الدكتور الصالح أحمد العلى « التنظيمات السياسية والاقتصادية فى البصرة » بغداد - ١٩٥٢ ، وانظر : فصل الملاحة البحرية فى كتاب آدم ميتز « الحضارة الإسلامية » فى القرن الرابع ، الترجمة العربية : ٣١٢/٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ العالم للسير « چون . أ . هامرتن » : ٢٦٤/٦ - طبع النهضة المصرية .

قال ابن حوقل : « وهى موصوفة بالمجالس الحسنة ، والمناظر الأنيقة ، والميادين العجيبة والفواكه البديعة ، والبرك الفسيحة ، لا تخلو من المتنزهين ، ولا تعرى من المتظرفين منحدرين ومصعِّدين .. » .

* *

بغداد

قال جورجى زيدان فى « تاريخ التمدن الإسلامى » [1] : « هى عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ فى الجانب الغربى بشكل مستدير وجعل حواليها قطائع لحاشيته ومواليه وأتباعه . فلما كانت أيام المهدى جعل معسكره فى الجانب الشرقى من دجلة ، وسمى ذلك المكان عسكر المهدى . ثم انتقل إليه الوجهاء وأهل الدولة وبنوا فيه ، وانتقلت الخلافة إلى الجانب المذكور وامتدت أبنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر ، ويسمى جانب بغداد الشرقى « الرصافة » ، والجانب الغربى « الكرخ » .

« وبلغت بغداد معظم عمارتها فى أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا : إن مساحتها ٥٣ر٧٥ جريباً ، منها ٢٦ر٧٥ جريباً فى الجانب الشرقى و ... ٢٧ر فى الجانب الغربى .

والجريب : ٣٦٠٠ ذراع مربع ونسبته إلى الفدان كنسبة ١٠٠ إلى ٣٣٣ وثلث ، فتكون مساحة بغداد كلها نحو (١٦ر٠٠٠) فدان وهو شىء كثير ، ولكن يظهر أنها كانت عبارة عن مدن متلاصقة . قال الخطيب البغدادى فى تاريخه : إنها أربعون مدينة ، وإن الحمامات بلغ عددها فى أيام المأمون (٦٥ر٠٠٠) حمام .

وقال صاحب « سير الملوك » : « وكان عدد الحمَّامات فى ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمَّام ، وأقل ما يكون فى كل حمَّام خمسة نفر : حمَّامى وقَيِّم

---

(١) الجزء الثانى ص ١٨٢ وما بعدها .

وزبال ووقاد وسقاء يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل ، وذكر أنه يكون بإزاء كل حمّام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد ، وتقدير ذلك أن أقل ما يكون فى كل مسجد خمسة نفر ، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان » .

وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبرى فى أثناء كلامه عن الفتنة التى وقعت فى بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال : « وقيل إنه عبر الجسرين من العامة فى ذلك الوقت (١٠٠٠٠٠) إنسان فى الرواريق » .

فإذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبروا ؟ فلا نبالغ إذا جعلنا عدد سكان بغداد فى ذلك العهد نحو مليون ونصف أو مليونين .

ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفى سائر بلاد السواد ، قال ابن حوقل وقد رآها فى القرن الرابع للهجرة : « ومن بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات » .

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن ، كالقيروان فى بلاد المغرب ، وواسط فى العراق ، وغيرهما فى مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التى كانت عامرة قبل الإسلام ، وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها ، مثل دمشق الشام ، وقرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، والإسكندرية

وأنهارها على أيام بلال بن أبى بردة (سنة ١١٨ هـ) زادت على ١٢٠٠٠٠ نهر تجرى بها الزوارق . قال « الاصطخرى » : « وقد كنت أنكر ما أذكر من هذه الأنهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع . فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجرى فى كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذى احتفره . أو إلى الناحية التى يصب فيها ، فجوّزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها » .

وهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التى ذكرنا أن مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً

وإنما يضمون إليها ما يتبعها من المغارس إلى عبادان عند بحر فارس . قال ابن حوقل والاصطخرى : « ولها نخيل متصلة من عبدسى إلى عبدان - نيفاً وخمسين فرسخاً متصلة ، لا يكون الإنسان منها إلا وهو فى نهر ونخيل ، أو يكون بحيث يراها » .

* *

الفسطاط

قال « جورجى زيدان » : « بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ هـ وجعل فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً ، وأقام أربعة من كبار رجاله ينزلون الناس فى الخطط المذكورة بحسب أحزابهم وقبائلهم .

« ثم أخذت الفسطاط تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت قدم المسلمين فى البلاد ، حتى بلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، وذكر مؤرخو العرب عن مقدار عمارتها إنه كان فيها ٣٦٠٠٠ مسجد ، و ٨٠٠٠ شارع مسلوك ، و ١٧٠١ حماماً . وبلغ من تزاحم الناس فى الفسطاط أن جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات إلى سبع ، وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس ، وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠ وهى دار الحرم لخمارويه .

واشتهر من تلك الأبنية دارٌ ضُرِبَ المثل بعظمتها وغنى أهلها تسمى : « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعمائة راوية كل يوم . ونقل بعضهم أن الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤيدة ببكر وأطناب لها ترخى وتملأ » .

ثم تحدث عن خلو المدينة من بطالة الصناع وقال :

« وفى ذلك دليل على غني أهل الفسطاط وترفهم ، ومن هذا القبيل استكثارهم من الفرش ، فقد يقتنى أحدهم ألف فرشة أو عشرة آلاف فرشة ، وذكروا أن رجلاً من أهل الفسطاط عنده ثلاثمائه فرشة ، كل فرشة لحَظيَّة من « الإماء » وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها ، وقد تكون أثمانها فاحشة ، فلا يبالون لغناهم » .

* * *

obeikandl.com

الأعياد فى القرن الرابع الهجرى

قال الأستاذ « آدم متز Adem Mez » أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال السويسرية :

« تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية (فى بعض البلدان) وكان معظم هذه الأعياد النصرانية صورة جديدة لمراسم قديمة للبلاد . وكثير من المواضع التى كان يحج إليها المسيحيون فى مصر وفى العراق . إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تُعمل فى الأديرة الناشئة هناك إلا صورة جديدة لأعياد الآلهة القدماء .

ولم يرض الذين دخلوا فى الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرموا من الاحتفال بهذه الأيام التى كانت تزدهى بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ، ولكن المسلمين - خلافاً للكنيسة المسيحية - أنفوا فى الغالب من وضع الأساطير ، وقد تركوا النصارى يتصرفون فى أمورهم الدينية من غير تدخل فى ذلك ، واشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلّمى من تلك الأعياد ، كما فعل آباؤهم من قبل » [١] .

وفى أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الحلاوة القاهرية وقربات الجلاب وطيافير الزلابية ، وماء الورد ، والسمك البورى .

وكانت توقد الحوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس يحملونها فى أيديهم ، ولهم على ذلك درهم ، وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر ، « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب فى هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها » [٢] .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : ٢/٢٣٦ (٢) المرجع السابق : ٢/٢٤٢

* عيد الخروج :

وكان من الأعياد الكبرى - عند النصارى بمصر - عيد سرعان ما اتخذه المسلمون ، وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا - قبل الخروج للسجن - أسواق البلد بالطبول والبوقات ، ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم .

* عيد الشهيد :

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد فى الثامن من مايو ، وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن الثامن العربى .

* عيد النيروز فى أغسطس :

وكانت العادة بالإجمال أن يحتفلوا بعيد النيروز - وهو مبدأ السنة الشمسية - بتبادل الهدايا ، وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام .

* عيد رأس السنة القبطية والفارسية :

فى عيد رأس السنة القبطية فى آخر أغسطس ، وعيد رأس السنة الفارسية والشامية وهو أول الربيع : كان يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء . ويمزحون مزحاً غير مهذب . فمنع الخليفة ذلك عام ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) ، واستمر يؤدب الناس ثلاثة أيام . فلم ينفع التأديب وظل جارياً فى كل عام حتى أبطله السلطان برقوق فى أواخر القرن الثامن الهجرى . ولكن لا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى فى عيد الصعود ويسمى « خميس الرشاش » [١] .

* عيد المهرجان :

أول الشتاء ، وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً « عيد المهرجان » ،

---

(١) المرجع السابق : ٢٤٧/٢

وظل - إلى جانب النيروز - أكبر الأعياد ، وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون فى النيروز . وكان القواد ورجال دار الخلافة ، تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء . وكان العامة يغيرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس ، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان [١] .

* عيد الأضحى وعيد الفطر :

قال « آدم ميتز » [٢] : « أما العيدان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر . وكانا إلى جانب النيروز الفارسى أكبر الأعياد ، عند أهل بغداد فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أهل البصرة يسمنون الأضاحى سنة وأكثر . ثم تباع لعيد النحر ، الواحدة منها بعشرة دنانير ، ويحكى أنه فى آخر يوم من رمضان سنة ٣٨ هـ حمل « يأنس الصقلبى » صاحب الشرطة السفلى السماط (مائدة طويلة) وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل أيضاً « على بن سعد » المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها فى شوارع القاهرة ، وكانت تعمل أسمطة أخرى فى القصر يحضرها الخليفة بنفسه فى يوم عيد الفطر وعيد النحر . ففى عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ٣٠٠ ذراع فى سبعة أذرع من الخشكنان والفانيد والبسند ، فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكّن الناس من ذلك السماط الممدود ، فيهجمون عليه وينهبونه ويحملونه فى مرح وفرح .

وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يُحتفل بهما بالأبهة الإسلامية احتفالاً رسمياً . وكانا لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى علي أقواه مثل طرسوس ، حيث كان يأتى غزاة المسلمين من كل ناحية فى المملكة الإسلامية حتى كان عيداها يعتبران من محاسن الإسلام ، ولما ضاعت من المسلمين طرسوس بقيت صقلية مشهورة بحسن عيديها ، وكان يُذبح فى عيد النحر حيوانات كثيرة .

---

(١) نفس المرجع : ٢٤٨/٢ (٢) المرجع نفسه : ٢٤٩/٢

* سُنَّة تفطير الصائم :

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عباد أن داره كانت لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تفطر فيها ، وأن صدقاته وقرباته فى هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة .

* ابتداع المولد النبوى وغيره :

ثم قال « آدم ميتز » [1] : وكان ازدياد التكريم للنبى - عليه السلام - بين أهل الصلاح والورع سبباً فى أن صار يُحتفل بمولده حوالى (عام ٣٠٠ هـ) وكان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى ، ويحكى عن الكرجى (المتوفى عام ٣٤٣ هـ = ٩٥٤ م) - وكان من الزهاد ، المتعبدين - أنه كان لا يفطر إلا فى العيدين وفى يوم مولد النبى عليه السلام .

وفى القرن السادس الهجرى أبطل « الأفضل ابن أمير الجيوش » أمر الموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى ومولد الإمام الحاضر .

على أن أول مَن احتفل بمولد النبى عليه السلام احتفالاً عظيماً هو - كما يقال - الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلى (المتوفى عام ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م) وفى ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيثار الكلام فى قصة المعراج ، فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية .

وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين ، بل من فارس ، منهم العلماء والمتصوفون والوعاظ والقراء والشعراء ، وهناك يقضون فى أربيلا من شهر المحرم إلى أوائل ربيع الأول . وكان الأمير يقيم فى الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب

---

(١) المرجع السابق : ٢/ ٢٥٠

ذات طبقات كثيرة بعضها فوق بعض تبلغ الأربع والخمس ويزينها ويجلس عليها المغتون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمشى أمام تلك المناضد ، والتمتع بما يُقدَّم لهم ، وكان الأمير فى ليلة المولد نفسها يركب فى الشارع وبين يديه الشموع العظيمة كلّ منها مربوط فى بغل وكان العيد ينتهى بموكب ووليمة .

* الأعياد العائلية :

قال « آدم ميتز » : وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعد فى (القرن الرابع الهجرى) عيداً خاصاً ، لأنه كان لا يزال محتفظاً بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء ، وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ، وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل إلى جانب حفلات الختان .

وأخيراً .. كان من الأعياد يوم الاحتجام وفيه يُهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ، ويُعمل له أجود الطعام ، وكان الحلاق هو الذى يقوم بهذه العملية ، وكان يعطي على ذلك ديناراً (حوالى عام ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م) .

* الأعياد المشروعة :

ويلاحظ أن الإسلام شرع عيدى الفطر والأضحى ، ولكل منهما شعائر دينية تخصها كصلاة العيد وزكاة الفطر ، والأضحية فى عيد الأضحى ، وأما هذه الأعياد التى ذكرها « ميتز » فهى من البدع التى ظهرت إبَّان ضعف الحماس الدينى .

* * *

الألقاب .. والتكلف فى المكاتبات

● متى ظهر التهافت على الألقاب ؟

قال « آدم ميتز » فى « الحضارة الإسلامية فى القران الرابع الهجرى » [١] :

ظهر التهافت الشديد على الألقاب والتكلف فى أساليب المكاتبات فى القرن الرابع وبقى إلى اليوم ، وفى المكاتبات الرسمية كانت تُوجَّه عناية كبيرة إلى العنوانات وتعظيم شأن المخاطَب ، وإلى الإسهاب فى ذلك . على حين كان يُختَم الخطاب ويوقَّع عليه فى إيجاز ، على خلاف عادة الأوروبيين .

وقد بدأ هذا منذ القرن الثالث الهجرى . وذلك أن العادة كانت جارية فى المكاتبة بين الناس بأن يقال : من فلان إلى فلان ، أو من أبى فلان إلى أبى فلان ، ولم يكن على شىء من العنوانات دعاء ، حتى جاء الفضل بن سهل فى خلافة المأمون ، فكتب كتاباً عنوانه « لأبى فلان أبقاه اللّه ، من أبى فلان » ، ثم استعمل الناس بعد ذلك الدعاء على عنوانات الكتب .

فكان يكتب الوزير إلى أمير الشام وأجنادها : « أعزك اللّه ومدَّ فى عمرك ، وأتم نعمته عليك وإحسانه إليك » . ويكتب إلى الذرَّاع (مهندس المساحة) والمهندسين : « حفظك اللّه وعافاك » .

وكان الوزراء والكبراء فى أول القرن الرابع يَخاطَبون بسيدنا أو مولانا ، ويُستعمل في ذلك ضمير المخاطَب أو المفرد ، وفي عام ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) كان ابن سعدان الوزير يخاطب الوزير ابن عباد بـ « الصاحب الجليل » ، والصاحب ابن عباد يخاطب ابن سعدان بـ « الأستاذ مولاى ، ورئيسى » ، وكان عيسى بن نسطورس - وزير العزيز باللّه - فى مصر يُخاطَب بـ « سيدنا الأجل » .

---

(١) الجزء الأول ص ١٤٠ - ١٤٣

ويقال إن أبا الحسن كاتب الخليفة القادر باللّه (٣٨١ - ٤٢٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٣١ م) هو مخترع لفظ الحضرة فى المخاطبة . وفى هذه المسألة الصغيرة أيضاً نجدنا حتى الآن نسير على رسم القرن الرابع .

وهذا الكاتب هو مخترع عبارة الحضرة العالية الوزارية ، وهو أول مَن أخرج عبارة « الحضرة المقدسة النبوية » فى الكلام عن الخليفة ، وأشرك بذلك عبارة « السُّدَّة النبوية » ، ثم كتب عن الخليفة بلفظة غريبة غير مستقيمة الدلالة وهى « الخدمة » وتصرَّف فى ذلك حتى قال : « قالت الخدمة ، وفعلت الخدمة ، وسُئلت الخدمة » ، حتى رأيت بخط أبى الحسن بن أبى الشوارب فى ترجمة رقعة : « خادم الخدمة الشريفة فلان بن فلان » .

وقد لقب الخليفة القائم وزيره (قُتِل عام ٤٥ هـ = ١٠٥٨ م) بألقاب هى : رئيس الرؤساء ، وشرف الوزراء ، وجمال الورى .

أما بين القضاة ، فقد بقى الرسم القديم جارياً ، فكان قاضى القضاة يوقِّع للقضاة بما يقول فيه : أبو فلان فلان بن فلان القاضى . أيَّده اللّه . يفعل كذا - وإلى قاضى النواحى : « فلان بن فلان الحاكم » ، بغير كنية ولا دعاء ولا ذكر قضاء .

وفى عام ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) لقب قاضى القضاة الماوردى بلقب « أقضى القضاة » ، وجرى من بعض الفقهاء إنكار لهذه التسمية ، وقالوا : لا يجوز أن يسمى به أحد ، هذا بعد أن كتبوا بخطوطهم بجوار تلقيب « جلال الدولة » بملك الملوك الأعظم فلم يلتفت إليهم الماوردى واستمر له هذا اللقب إلى أن مات ، ثم تلقب به القضاة بعده .

* *

* الثورة على الألقاب :

واسترسل « ميتز » قائلاً : قال أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى (المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) فى هذه الألقاب :

ما رأيتُ بنى العباس قد فتحوا ... من الكُنى ومن الألقاب أبوابا

ولقبوا رجلاً لو عاش أولهـــم ... ما كان يرضى به للحُشِّ بوابا

قلَّ الدراهم فى كفَّىْ خليفتنـــا ... هذا فأنفق فى الأقوام ألقابـا

وقد حاول الخليفة الحاكم بأمر اللّه أن يلغى الألقاب فبعد أن سخا فى منح الألقاب على اختلاف أنواعها أسقطها عام ٤٠٨ هـ (١٠١٣ م) ما عدا ألقاب تسعة نفر هم أكبر حملة الألقاب ولكنه أعاد الألقاب بعد قليل .

* * *

● التجارة مع الصين :

كانت تجارة العرب فى الجاهلية والإسلام تربط بين أطراف العالم والقارات المعروفة آنذاك . وهى : آسيا وإفريقيا وأوروبا ، ولا غرو فقد اشتهر بين المسلمين حديث : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ، وفى قرآنهم سورة قريش .

وقد تحدث « ليونيل جايلز » عن الامتداد التجارى الإسلامى العربى حتى بلاد الصين وجيرانها فقال : « وهناك وثيقة أخرى أصدرها موظف صينى عام ١١٧٨ ميلادية توضح أن معظم التجارة بين الصين وأرخبيل الملايو كانت لا تزال فى أيدى العرب ، وبعض الأجانب الآخرين » [١] .

* * *

(١) تاريخ العالم للسير « چون . أ . هامرتن » : ٢٦٤/٦ ، طبع النهضة المصرية .